عصر الولاة والتمهيد لقيام الدولة

وفيما كانت الأحوال في المشرق تُنذر بانقلاب شامل ضد الأمويين كانت حوادث الأندلس تُؤذن بانقلاب شامل وخطير يُحدد مصير الإسلام في هذه البلاد (بلاد الأندلس) في أقصى الغرب، وقد تحدّثنا عن الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة، وكيف أنها كانت تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول بالنسبة للإسلام والمسلمين لا ندري عواقبه.

ففي الأندلس اجتمع أهلها على يوسف بن عبد الرحمن الفهري، غير أنّه كان كبير السن، ضعيف البنية، مما جعله سهل الحركة، وفقًا لإرادة الصُّمَيل بن حاتم زعيم القيسية في الأندلس، واجتمعت قضاعة على عبد الرحمن بن نُعَيم الكلبي، فجمع من الرجال مئتي رجل وأربعين فارسًا، في بيت القصر بقرطبة، وقاتل الحراس، وهجم على السجن، فأخرج أبا الخطار بن ضرام، الذي كان مسجونًا، وهرب به إلى لبْلَة، فأقام في كلب، وقبائل من حمص، فاكتنفوه ومنعوه[١].

كان الصُّميل بن حاتم مؤيداً ليوسف بن عبد الرحمن الفهري، واجتمع حوله الناس، غير أنه وقع خلافٌ في ذلك بين مضر واليمن؛ فانصرفت اليمن كلها إلى أبي الخطار، وزحف الصُّميل إلى يوسف، فكره يوسف الفهري الخلاف، وخاف الفتنة، وفشت البغضاء والشحناء، فنزل الصميل ومن معه، وجاء أبو الخطار ومن معه أيضًا، والتقت الفئتان بشقندة، وكانت موقعة حاسمة بين الفريقين.

وفي وصفها يقول ابن عذارى: فلا تسمع إلاّ صهيلاً وصليلاً، ولا ترى إلاّ قتيلاً، حتى تكسّرت الحطيّة، وتفللت المشرقية، والتفت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق، فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد حرب

(١) «البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي (جـ ٢، ص٣٥).

الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية على أبي الخطار[١]. ورأى الصُّميل أن يستعين بأهل السوق للاشتراك في القتال في الوقت الذي تعبت فيه عساكر الفريقين، فبعث إلى غوغاء قرطبة خالد بن يزيد مولى يوسف الفهري، فأقبل معه (٤٠٠) أربعمائة رجل يحملون العصى والسيوف والمزاريق، وخرج الجزارون بسكاكينهم، فجاؤوا إلى قومٍ موتى[٢] قد أنهكهم القتل والتنكيل.

وأمعن أصحاب الصُّميل بن حاتم في اليمنية تقتيلاً وأسرًا، وكان من بين الأسرى أبو الخطار وابن حريث، فاستقدمهما الصُّميل مع جموع الأسرى إلى كنيسة شنت بنجنت بقرطبة، حيث قُتل سبعين منهم، وأصبح الصُّميل بذلك هو الوالي الفعلي للأندلس، فكانت له الرئاسة والتدبير والرسم، بينما كانت ليوسف بن عبد الرحمن الفهري الاسم فقط[٣].

ولما أخذ أبو الخطار، وأرادوا قتله، قال: ليس عليَّ فوت، ولكن دونكم ابن السوداء. ودلّ عليه، وقُتلا جميعًا.

وكان ابن حريث يقول: لو أن دماء أهل الشام سُقيت، لشربتُها في قدح، فلما استخرج من تحت الرحى ليُقتل، قال له ابن الخطار: يا ابن السوداء، هل بقي شيء في قدحك لم تشربه. ثم قُتلا (ابن الخطار – وابن حُريث)[٤].

كانت هذه الأحداث من نتاج صراع اليمنية والشامية في الأندلس، ولكن ماذا عن الشخصيات الثلاث الفاعلة في هذه الأحداث، وهم: أبو الخطار، وابن حريث، والصُّميل بن حاتم.

كان لكل هؤلاء دورٌ واضح في الصراع بين اليمنية والقيسية إلى أن انتهى

---

(١) المصدر السابق (٢/٣٦).

(٢) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص١٦٤).

(٣) المصدر السابق (ص١٦٤).

(٤) «البيان المغرب» لابن عذارى (٢/٣٦).

لصالح الصُّميل ومعه يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ولنتحدث قليلاً عن الثلاثة، بل نتحدث عن خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر.

فقد تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة (عصر الولاة) ٢٢ واليًا، حكم واحد منهم مرتين، ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالي أقل من سنتين، وهذا وحده يكفي لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذي ساد الأندلس خلال هذه الفترة؛ ولذلك أسباب أهمها:

١ - اضطراب السياسة العامة لبني أُميّة بعد الوليد بن عبد الملك.

٢ - وقوع هذه السياسة فريسة للعصبيات القبلية والشخصية.

ولهذه الأسباب انعكس الأمر كله على الأندلس، ففي المغرب كان الخلاف الكبير بين العصبيات العربية، ثم خلاف العرب البلديين، وهم الفاتحون الأوائل للأندلس مع العرب الشاميين[١]، ثم خلافات هؤلاء جميعًا مع البربر، وكان لابد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس.

وهناك أيضًا التنازع على السلطان بين الطامعين فيه، يُضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلدٌ قائم بذاته له ظروفه التي لا تُشبه ظروف أي بلد مما فتحه المسلمون في ذلك الحين، فإن الأندلس كان ثغرًا لبلاد المسلمين، وكان لابد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد.

ومما يُلفت النظر هنا أن العرب رغم مشاغلهم الكثيرة في الأندلس، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح في «غالة» - أي فرنسا - نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تُضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية.

ولا يُقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء؛ ولذلك سنرى أنّ المد العربي لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية، كان لابد أن يقف عند

(١) «معالم تاريخ المغرب والأندلس» د/ حسين مؤنس. (٢٧٧) - طبعة مكتبة الأسرة - مصر.

نقطة ما، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم قليل نسبيًا، بدأوا فتوحاتهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة.

« وهناك أخيرًا مشاكل الحُكْم في الأندلس نفسه، وهو بلدٌ فسيحٌ جدًا دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها، فكان على العرب أن يُعالجوا مشاكل جمّة، وإن الإنسان ليدهش إذْ يراهم رغم صعوبة ظروفهم، وقلّة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقًا، فلم يظلموا من أهل البلاد أحدًا، بل نشروا بينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعُنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري وأنشاوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريبًا »(١).

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب، ظهر عبد الرحمن ابن معاوية الداخل وصار الأمر إليه، وهو كما سنرى من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام، فأنقذ البلاد من الفوضى، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين، فلم تضع هذه الجهود هباءً.

النزاعات والخلافات بين العرب وبين أنفسهم ونزاعهم مع البربر:

ولو نظرنا للأحداث السابقة لرأينا كيف صار أمر الأندلس إلى أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير في منتصف سنة (٩٧ هـ - مايو سنة ٧١٦م) تقريبًا.

ويمثل أيوب بن حبيب العرب البلديين، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم.

وقد تحالف أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى مع الخليفة سليمان؛ أملاً في أن تُؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد.

---

(١) المصدر السابق.

ولم يفعل أيوب بن حبيب شيئًا يُذكر طوال فترة حكمه القصيرة (أربعة أشهر)، ولكنه هو الذي نقل العاصمة أشبيلية - عاصمة الأندلس آنذاك - إلى قرطبة؛ لأن موقعها أكثر توسطًا، ثم إن أعدادًا كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم.

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه، فقد قام «يزيد بن مسلم» والي سليمان بن عبد الملك على المغرب، بتعيين الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس، فكان الحُرّ - على هذا - يُمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشاميين، مما أبعد عنه البلديين، وقد بدأ الحُرّ ولايته في (ذي الحجة سنة ٩٨هـ - ٧١٧م)، واستمر سنتين وثمانية أشهر، لا تُنسب فيها إليه أعمالاً ذات شأن، وكل ما فعله أنه أقام دار الإمارة في قُرطبة، وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادي، وكانت قبل ذلك قصرًا للحاكم القوطي الذي انتزع مُغيث الرومي البلد من يده، وقد سكن مُغيثٌ في جانب من القصر عُرِفَ ببلاط مُغيث، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه، فلما جاء الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة قربه على ضفة النهر، باسم «بلاط الحُرّ»[1].

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في (١ صفر سنة ٩٩هـ - ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م) نظر في أمر المغرب والأندلس فأقام على الأول: إسماعيل بن عبيد الله، وعلى الثاني: عنبسة بن سحيم الكلبي، وكلاهما كان من خيرة الحكام.

بدأ عنبسة في (رمضان سنة ١٠٠ هـ - أبريل - مايو سنة ٧١٩م)، وبرغم قصر المدة التي تولاها، فإنه يُعدّ من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فُتح منها صلحًا مما فُتح عنوة، وبدأ استخراج الخُمس من الأراضي التي فُتِحَت عُنوة ليجعله ملكًا

(١) المصدر السابق (٢٧٩).

للدولة، وأتم هذا بما يتّصل بإقليم قرطبة، والمفروض أنه فُتح عنوة، وقد دخلت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحرّ في بعضها مقبرة للمسلمين، ووزع الباقي على الزراع على أساس المزارعة، أي المناصفة في الغلة، ثم أعاد بناء قنطرة الوادي، وكانت قد تصدّعت.

وفي سنة (١٠٢هـ - ٧٢١م) خرج عنبسة غازيًا في غالة، فاستُشهد في «طرسونة» في يوم عرفة من العام نفسه، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد في سبيل الله، وهو أعظم الصالحات.

«وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكّر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفًا على مصيرهم في ذلك الثغر السحيق في نظره، ولكنه عدل عن هذه الفكرة؛ إذْ كان المسلمون قد استقروا في البلاد، وكثروا وبدأ نفرٌ من أهلها يُسلِمون، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك»[١].

وتولى بعد ذلك السمح بن مالك، وبعد موت عمر بن عبد العزيز، عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الشاميين، فصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين، وانضم البربر إلى العرب البلديين؛ لاتفاق مصالح الجانبين، وجاء أشد الولاة تعصبًا للشاميين القيْسيِّين، هو الهيثم بن عبيد الكلابي الذي استمرّ حتى سنة (١١١هـ - ٧٣٠م)، وبعد الهيثم أُختير عبد الرحمن الغافقي، وقد استُشهد في بلاط الشهداء في (رمضان ١١٤هـ - أكتوبر ٧٣٢م).

وأقام عرب الأندلس على أنفسهم واحدًا منهم هو عبد الله بن قطن الفهريّ، والذي سيكون له دور كبير في الأندلس فيما بعد، واشتدت ثورة البربر في المغرب، وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس، فبدأ أمر العرب في الأندلس يتحرج، وكانت ثورة البربر على العرب في الأندلس؛ لمحاولة العرب تمييز أنفسهم باختصاصهم بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها - مثلاً - وعلى العموم فإن

---

(١) «تاريخ المغرب» د/ حسين مؤنس (ص ٢٨٠).

ثورة البربر أنكرت سيادة العرب جملةً، وقد وجدت صدىً في الأندلس، فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم، وخاصة من جليقية وحوض الدوير والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجه.

وكان أمير الأندلس إذْ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري كبير العرب البلديين – كما ذكرنا – كان هو ومعظم من معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين، فلما رآها موجّهة إلى العرب جميعًا وبلغه من العرب الهاربين إليه، من نواحي اشترقه وليون وشلمنقة وأبلة وشقوبية أنفسهم أن البربر يسيرون في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة، والجزيرة الخضراء على الترتيب، خاف الرجل سوء العاقبة.

في هذا الأثناء كان بلج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبته بعد هزيمة الأشراف في المغرب، وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى، ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور إلى الأندلس؛ ليعاونوه على القضاء على البربر، وبدأ بالفعل بقيادة بلج سنة (١٢٣هـ – ٧٤١م)[١]، ولم ينقضِ عام على دخولهم الأندلس، وكانوا حوالي عشرة آلاف، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين، وكانت المعركة الحاسمة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل (١٢٤هـ – نوفمبر ٧٤١م)، وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر، وكانت نتيجة ذلك أن روع بربر الأندلس روعًا شديدًا، فأخذوا يتركون أراضيهم، وخاصة في الوسط والشمال الغربي ويعودون إلى إفريقية، وكان لهذه الهجرة الجماعية أثرًا سيئًا على مستقبل الإسلام في الأندلس، فإن ألوفًا كثيرة من هولاء المسلمين الذي كان يُنتظر أن يعمروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجه خالية تقريبًا من المسلمين، فأصبحت هذه النواحي ابتداءً من النصف الثاني

(١) المصدر السابق.

للقرن الثامن الميلادي أراضي خلاء مفتوحة لنصارى الشمال؛ ليمتدوا كيفما يشاؤون، وسيعمر النصارى جزءًا كبيرًا منها خلال القرن التاسع الميلادي، ويُصبح حوض الدويرد أرضًا نصرانية، لقد خسر المسلمون نتيجةً لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة، خسروه دون أن يُخرجهم منه عدوٌّ، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض، وقلّة نظرهم إلى العواقب. وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب «بلج» رفضوا العودة إلى إفريقية، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن، فوقع النزاع الشديد بين «بلج» وعبد الملك، وانتهى بعزل هذا الأخير، وولاية بلج بن بشر في (ذي القعدة ١٢٤هـ - سبتمبر ٧٤١م).

وقد أنكر أهل الأندلس جميعًا رياسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين، وقاموا عليهم وقتلوا بلجًا، فخلفه شاميٌّ شديدُ العصبية مثله هو ثعلبة بن سلامة العاملي، واشتدت الحرب بين البلدين من عرب وبربر في جانب، والشاميين في الجانب الآخر.

وسنرى الأحداث القادمة من خلال ثلاثة رجال، هم: أبو الخطار، والصميل، ويحيى بن حريث:

قدوم أبو الخطار من إفريقية:

أسرع عامل إفريقية فضلة بن صفوان الكلبي، فأرسل واليًا جديداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، فبدأ ولايته في (رجب ١٢٥هـ - مايو ٧٤٣م)، وبدأ الرجل بداية مبشرةً، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم، وأراد أن يُبعد عنهم أذى الشاميين، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين، من أسلم منهم ومن لم يُسلم؛ لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها.

ثم نظر إلى الشاميين فتبيّن أنهم جميعًا متجمعون في قرطبة وإقليمها، وهذا

التجمع هو الذي يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشئون الدولة، ففكر في أن يوزعهم على نواحٍ شتّى في الأندلس، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحدٌ، وقد أشار عليه بذلك أرطباس بن غيطشه، شيخ نصارى الذمة، وكان شخصية محترمة مفربة من الأمراء، وكان يُسمى «قرمس الأندلس» وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ويأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذّمة والمزارعون، على أن يُقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجند كلما طلبت ذلك، وقد تم توزيع الشاميين على الكور (المحافظات أو المديريات) الآتية:

١ – جند مصر: كور أو محافظات أوكشونية وباجة وتدمير.

٢ – جند حمص: كور أو محافظة إشبيلية.

٣ – جند فلسطين: محافظة مالقة.

٤ – جند دمشق: محافظة البيرة وهي غرناطة.

٥ – جند قنسرين: محافظة جيان.

وقد أصبحت هذه المحافظات أو الكور الشمالية تُسمى بالكور المجندة، وقد استقرت فيها جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم واطمأنوا فيها، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة حول النظام الذي ذكرناه، ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لأنفسهم بثلث خراج الأرض، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم للأندلس.

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة، فمال إلى اليمنية وثار النزاع من جديد.

الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري:

الصُّميل شخصية فريدة في بابها تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين، الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم[١]!؛

(١) «معالم تاريخ المغرب والأندلس» د. حسين مُؤنس (ص٢٨٤).

فهو شجاع لا يهاب الموت، كريمٌ يجود بكل ما في يده دون تردد، شهمٌ لا يرتكب ما يمس المروءة، وهو سيدٌ مُهذَّبٌ يعرف كيف يُعامل الناس، وهو أيضًا شاعرٌ يقول شعرًا يسيرًا، ولكنه يُعجب بالشعر الجيد، وهو بعد ذلك كله أُميٌّ لا يعرف من القرآن إلاّ ندرًا يسيرًا، وهو عنيف في خصومته شديد الحقد، لا ينسى ثاره، ومسرفٌ في العطاء لا يكاد يُبقي شيئًا، وكان لا يتورع عن شرب الخمر، وهو ذكيٌّ خبيثٌ لا يفوته أمرٌ ولا يتردد في القضاء على خصومه، وهو كسولٌ في معظم أوقاته، فإذا قام على قدميه لم يهدأ وتحوّل إلى شيطان متّصل الحركة فيُصيب الناس والبلاد منه أذى شديدٌ.

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس، فتبين بسبب قيسيته (أي شاميّته) أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلاّ إذا تعاون الفريقان على صورة من الصور، ولكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين؛ لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم في كل حين، فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لواؤه، ثم بحث في المعسكر الآخر (أي في البلديين) فاختار زعيمًا يؤيده ويُسَيِّر الأمر باسمه ذلك الوقت، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي أجمع البلديون على رياسته، وكان الشاميون أيضًا مستعدين للخضوع له بسبب مضريتهم، وأخيرًا تمّ الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهري، ويكون الصُّميل مستشاره وصاحب رأيه، واستقر الأمر على ذلك في (ربيع الثاني ١٢٩هـ - ديسمبر ٧٤٦م)، ولم تستقر الأمور لهما إلاّ بعد حرب طويلة مع زعيم يمني يُسمى يحيى بن حُريث.

الزعيم اليمني يحيى بن حريث:

تمثلت العصبية في هذا الرجل بصورة أكثر تطرفًا؛ فقد بلغت عصبيته لليمنية مبلغًا جعله غير قادر إطلاقًا على احتمال أهل الشام بأي سبيل، ولكنّه انهزم وقُتل في معركة شقندة (١٣٠هـ - ٧٤٧م)، وخلا الأمر بعد ذلك للصُّميل ويوسف الفهري حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

ظلّت الأندلس تحت حكم الصُّميل وعبد الرحمن الفهري مدّة عشر سنوات، وهي السنوات الأخيرة من عصر الولاة في الأندلس، وقد هدأت الأحوال في هذه السنوات، فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة (١٣٦هـ - ٧٥٣م)، وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبينهم وبين البربر، فازدادت الهجرة إلى إفريقية، وقلّ عدد المسلمين في شبه الجزيرة عمّا كان، ويُستثنى من ذلك إقليم سرقُسطة، وكان معظم أهله عربًا يمنيين؛ فاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتاثروا بهذه الفتن[١].

وكانت ولاية الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري ولايةً طويلة، امتازت بالهدوء النسبي الذي ساد البلاد في أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العتيقة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، فقد كان يحتاج إلى حكم قوي ونشيط، فإنّ البلد خضع للمسلمين، لكنه لم يتحول إلى بلد إسلاميّ بعد، فقد كانت غالبية البلاد نصرانية، ولو استمر الوضع على هذا النحو، فإن أمر المسلمين كان لابد أن يتلاشى فهو بعيدٌ بعداً شاسعًا عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر، ولو عادت الفتنة مرة أخرى ولو فترة قصيرة لأصبح تلافي النتيجة المحتومة، وفي هذه الأثناء قامت الدولة العباسية في (ربيع الأول ١٣٢هـ - ٧٤٩م)، والتي اقترنت بمذابح واسعة النطاق أُنزلت بالأمويين.

وهنا كانت البداية - بداية قيام الدولة الأموية في الأندلس -.

(١) المصدر السابق.

عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل

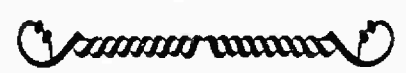

ساهمت حوادث الشرق في أن تعصف بآخر معاقل الأمويين وتقضي عليهم ليصعد العباسيون، وكذلك في الأندلس؛ فقد كانت الفتن والحروب الأهلية والحروب المتعاقبة، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تُخشى عواقبه، وتعصف تباعًا بمنعة وقوة الإسلام في الغرب، وتُشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية، وتوغل الفرنج في الأراضي الإسلامية، وتولى أمر الأندلس في ذلك المأزق العصيب يوسف بن عبد الرحمن الفهري، والذي وصفه بعض المؤرخين[١] بأنه رجلٌ قويٌّ حازم.

ولكن ولاية يوسف لم تكن حلاً نهائيًا للأزمة؛ لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا (الخلافة في دمشق)، وهذه السلطة وهي الخلافة في دمشق انهارت، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري في ذلك الوقت الحاكم بأمره في الأندلس، وكانت الأندلس آنذاك إمارة أو دولة مستقلة، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث، وكان للانقلاب الذي وقع في المشرق وتغيير الخلافة صدى واسع في الأندلس؛ إذْ قام بعض الخوارج على يوسف الفهري يدعو لبني العباس؛ طمعًا في الرياسة، ولكنه كان صدىً ضعيفًا لم يُحدث أثره، واستمر يوسف حاكمًا للأندلس، يُناهض الخارجين عليه بقوة وعزم شديدين، ولا ريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذي ألقى إليه به القدر، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد هي أن يُؤسس بالأندلس مملكة قوية يتبوأ عرشها، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ.

---

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان. - العصر الأول - القسم الأول (ص١٤٧) ط. الخانجي - مصر.

قصة المطاردة الدموية:

ظفر بني العباس بملك بني أمية، وفرّقوا شمل أسرتهم، وأخذوا في تتبع من بقي من أمرائهم وزعمائهم؛ حتى لا تقوم لهم قائمة بعد، وعهد أبو العباس عبد الله (السفاح) إلى عمه عبد الله بن عليّ وهو بالشام، تنظيم هذه المطاردة الدموية، فتتبع وجوه بني أمية ومواليهم في كل مكان، وأمعن في مطاردتهم وسفك دمائهم، وقتل منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة، ولم يبقِ حتى على النساء والأطفال، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء، زعم أنّ أبا العباس قد ندم على ما فرّط في حقهم، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه؛ فخُدِعَ كثيرون منهم بهذا الوعد، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلاً.

وكانت مأساة هائلة ارتُكِبَت خلالها ضروب مروّعة من القسوة، ومثّل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل، وأُلقيت جثثهم للكلاب، واستُخرِجت رُفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت، ولم تُترك جريمة مثيرة، أو لون من العقاب أو المهانة، إلاّ كان فلٌّ بني أمية لها فرائس وضحايا[1].

ولكن هذه المطاردة الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء الله أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة، وأن تزكوا لتستعيد أصلها الراسخ في أرضٍ أُخرى، هي أرض الأندلس، وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة، فتىً من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وكان وقت أن حلت النكبة ببني أمية - كان يُقيم مع أهله وإخوته في قرية تُعرف بدير خنان من أعمال قنسرين، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عامًا - حيث وُلِدَ في سنة (١١٣هـ - ٧٣١م) - وقيل: بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير - وتوفي أبوه معاوية في أيام أبيه هشام بن عبد الملك في سنة (١١٨هـ)، فكفله وإخوته جده هشام[2].

(١) ابن خلدون (جـ٣، ص١٣٢، ١٣٣)، وانظر «ابن الأثير» (جـ١، ص١٦١).
(٢) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦).

ولعل التاريخ الإسلامي كله، وفي سائر عصوره وأقطاره، لا يقدم إلينا شخصية تُضارع في قوتها، وثبت جنانها، وروعة خِلالها، المثيرة المؤثرة معًا، شخصية كشخصية عبد الرحمن الداخل، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وأصل هذه الشجرة الباسقة من الأمراء والخلفاء الذي أضفت عهودهم، وأعمالهم المجيدة، ومنشآتهم العظيمة، على الدولة العربية الإسلامية في أسبانيا (الأندلس) أثوابها الوضاءة، وتراثها الحضاري الرفيع.

خرج عبد الرحمن الداخل من غمار العدم، بعد أن انهار ملك أسرته فجأة وتحطمت دولتهم في المشرق، وهي ما تزال في إبان قوتها وعنفوانها، تحت ضربات المتوثبين من بني العباس، وكان من الفروع القلائل التي شاء الله عز وجل أن تنجو من الشجرة التي اجتثّ الظافرون معظم فروعها، في مطاردة دموية شاملة يندر أن يقدم إلينا التاريخ الإسلامي لها مثيلاً.

الفرار الشهير:

إنّ قصة فرار عبد الرحمن ذاتها من المشرق إلى المغرب، بما يتخللها من الحوادث المأسوية، والمغامرات المدهشة، ما يُثير الإعجاب والعطف، فقد كان يرى الموت والأسر يُنذرانه في كل خطوة، وقد استطاع أن يجوز من الشام إلى المغرب الأقصى، مُخترقًا فلسطين، ومصر، وبرقة، والمغرب الأوسط، وأعين أعدائه ساهرة تُطارد فلول الأمويين، وتكاد تضع يدها عليه في كل لحظة، ومما هو جدير بالذكر أنه حيثما وصل إلى برقة استطاع أن يتنفس الصعداء لأول مرة، وأن يجد ملاذًا آمنًا مؤقتًا عند أخواله بني نفرة، وهي من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح، وقد أقام لديهم طويلاً يرقب الفرص.

نعود إلى قصة الفرار الشهيرة، فها هو ذا عبد الرحمن يروي قصة فراره من المشرق، وهي قصة تُشبه قصص المغامرين الأبطال، بل هي قصة أشبه بالمعجزات

منها بقصة شاب مغامر، أيقن أنه هو الذي سيُحيي دولة بني أُميّة، وسيُعيد إليها شبابها بعد أن أدركها الهرَم، وكادت تزول من الوجود.

يقول عبد الرحمن الداخل (صقر قريش):

«إني لجالس يومًا في تلك القرية، في ظلمة بيتٍ تواريتُ فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فزعًا باكيًا، فاهوى إلى حجري، فجعلتُ أدفعه لما كان بي، ويأبى إلاّ التعلق، وهو دَهِش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجتُ لأنظر، فإذا بالرَّوع قد نزل بالقرية، فنظرت فإذا الرايات السود عليها منحطة، وأخٌ لي حديث السن كان معي يشتدّ هاربًا، ويقول لي: النجاة يا أخي؛ فهذه رايات المسودة، فضربتُ يدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي وأخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجّهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يتبعنني ومولاي بدر معهن.

وخرجت فكمنت في موضعٍ ناءٍ عن القرية، فما كان إلاّ ساعة حتى أقبلت الخيل، فأحاطت بالدار، فلم تجد أثرًا، ومضيتُ ولحقني بدر، وأتيت رجلاً من معارفي بشطّ الفرات، فأمرته أن يشتري لي دوابّ، وما يصلح لسفري، فدلّ على عبد سوء له العامل، فما راعني إلاّ جلبة الخيل تحضرنا فاشتددنا في الهرب، فسبقناهما إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تُنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حانئًا لنفسي، وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي.

فلما قطعنا نصف الفرات، قصَّر أخي ودُهش، لألتفت إليه لأقوي من قلبه، فإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تُقتل يا أخي، إليّ إليّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغترَّ بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعتُ أنا الفرات، وبعضهم قد همّ بالبحر للسباحة في إثري، فاستكلفه أصحابه عن ذلك، فتركوني.

ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثُكلاً ملأني مخافة، ومضيتُ إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضة أشبه، فتواريتُ فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجتُ أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية»[١].

تلك هي قصة الفرار الشهير، حيث هروبه من المشرق، وفراره من أيدي العباسيين الذين حاولوا اقتناصه أكثر من مرة، ولم يكن وصوله إلى إفريقية هو نهاية المتاعب، ولكنه واجه من المصاعب هناك ما يجعلنا نقف متعجبين أمام مغامراته، مما جعل أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسي) يحمدُ اللهَ الذي حيَّد البحر بينه وبينه[٢].

الاختراق:

ما إن أمِنَ عبد الرحمن خطر مطارديه، حتى سار متخفيًا، قاصداً إلى المغرب، ويقول المؤرخون[٣]: «إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى، وأن نفسه كانت تُحدّثه بما سيكون له في الأندلس من شان، وأن بني أميّة كانوا قبل مصرعهم يهجسون بمثل هذه النبوءة ويُرددونها».

ومن هذه الأهاجيس على الجانب الآخر وفي إفريقيا كان عند واليها عبد الرحمن ابن حبيب الفهري يهوديّ يُحدِّث صحب مسلمة بن عبد الملك، وكان يتكهّن له. ويُخبره بتغلب القرشيّ المروانيّ الذي هو من أبناء الملوك - ملوك القوم - واسمه عبد الرحمن، وهو ذو ضفيرتين بملك الأندلس، ويورثها عقبه (أولاده وأحفاده)، فاتّخذ الفهريّ عند ذلك ضفيرتين؛ أرسلهما رجاء أن تناله الرواية،

(١) «نفح الطيب» (٣/٢٧).

(٢) «نفح الطيب» (٣/٣٦).

(٣) «أخبار مجموعة» (ص١٥)، وانظر «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٢)، و«البيان المغرب» (جـ٢، ص٤٣)، وابن خلدون (جـ٤، ص١٢١).

فلما جيء بعبد الرحمن، ونظر إلى ضفيرتيه، قال لليهودي: ويحك! هذا هو، وأنا قاتله»[١].

نعود الآن إلى الاختراق، فقد اخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، وقد ألحقتهما به أخته شقيقته أم الأصبغ، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من الجوهر، ثم جاز إلى برقة، والتجأ إلى أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكما ذكرنا فإن أمه كانت بربرية من بني نفزة، وتُدعى «راح» وأقام عبد الرحمن لدى أخواله طويلاً يرقُبُ الفرص، والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذهن هذا الرجل الجريء المغامر، وكان عبد الرحمن ابن حبيب قد انتزعها لنفسه في سنة (١٢٧هـ)، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس - كما قدّمنا -، ولكن الفتى الأموي لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل في هذا السبيل، وكان عبد الرحمن بن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أُميّة في إفريقيا، فطارد اللاّجئين إليها منهم، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به، فقتلهما.

وثقل فلُّ بني أُميّة على ابن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافةً، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه وطلب عبد الرحمن فاستخفى[٢].

وأقام عبد الرحمن ببرقة مستخفيًا خمس سنين عند شيخ من شيوخ البربر يُدعى وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، واستجار ببني رستم ملوك يتهرت، وسار في قبائل البربر إلى أن أقام عند قوم على شاطئ البحر، ولحق حينًا بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها، وأخذ يُجهز بدراً مولاه؛ ليبعثه إلى الأندلس؛ ليتصل بموالي بني

---

(١) «نفح الطيب» (٣/٢٨).

(٢) المصدر السابق.

أمية، وكان عدد الموالي المسجلين بالأندلس لبني أمية بين الأربعمائة والخمسمائة، وكانت رياستهم لأبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد – وهما من موالي عثمان بن عفان – .

التمهيد لدخول الأندلس:

وفي أواخر سنة (١٣٦هـ – ٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل، وقوّى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية، فبعث بدراً مولاه (خادمه) إلى الأندلس؛ ليسبر غور شؤونها؛ وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدرٌ بساحل البيرة (كورة غرناطة) وكانت نزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة بني أُميّة وأنصارهم، وكانت رياسة الأمويين – أو المروانية – والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أُمية – كما أسلفنا – هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد؛ فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن، وناشده العمل لنصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمنية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه.

وقال لهم بدر:

« ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيُقيم أودكم، ويُدرككم آمالكم. فقالوا: ومن لنا به في هذه الديار؟!. فقال بدر: ما أدناه منكم!، وأنا الكفيل لكم به »، ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده، وأنه يقدم نفسه إليهم، فقالوا: « فجئ به أهلاً، إنّا سراعٌ إلى طاعته، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه »[١].

عندئذ استجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين الصُّميل مودة وصداقة، ففكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبد الله بن خالد

---

(١) « الإحاطة » لابن الخطيب (جـ١، ص٤٥٣)، ط ١٩٥٦م .

في طليطلة، وكان الصميل قد ارتدّ منهزمًا عن سرقُسطة، وفي نفسه مرارة من يوسف؛ لأنه قصّر في غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد، ولكن الصُّميل أبدى ترددًا وفتورًا، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمنًا في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة[١].

وكان الصُّميل يحرص في الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف؛ لأنه مستأثرٌ في ظله بالنفوذ والسلطان، ويُشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا إلى بثّ الدعوة فيها، وحثّ اليمنية على القيام للأخذ بالثأر، وبثا عمالهما في أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموي، وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية، وأفضى إليه بنتائج رحلته؛ فاستبشر عبد الرحمن.

كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي الأندلس يستعد لغزوة من غزواته آنذاك، وكانوا سيخرجون معه في تلك الغزوة، فواتتهم الفرصة، واتصلوا باليمنيين، مثل أبو الصباح اليحصبي، وأبو علاقة الجذامي، وخاطبوا رؤساء اليمنية، وانتهزوا فرصة التباعد بين الصُّميل وبين الحصين بن الدجن، فخاطبوه في ذلك، فلم يتردد،وكان المضري الوحيد الذي أيّد دعوتهم.

فلما تمّ لهم ذلك، طلبوا من بدر مولى عبد الرحمن أن يبلغه أنهم أجابوه إلى طلبه، وأنهم ينتظرون مجيئه، فعاد بدر إلى مولاه بإجاباتهم سنة (١٣٧هـ-٧٥٤م)، ولكن عبد الرحمن أجابه بقوله: «لا تطيب نفسي على دخول الأندلس إلاّ أن يكون معي واحد منهم»[٢].

عندئذ رجع إليهم بجوابه، فرأوا أن يأخذوا رأي الصّميل، فاطلعوه على قصة عبد الرحمن بن معاوية، فقال لهم: «أُروّي في أمره»[٣].

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٤٥).

(٢) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» د. عبد العزيز سالم (ص١٨٠).

(٣) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٤٣).

وتمكّن الأمويون من الانفراد بالصّميل، وتكلّموا معه في قصة عبد الرحمن، فوعدهم المساندة، فشكروه على ذلك، ولم يكادوا ينصرفوا من مجلسه حتى عاد وقال: «تأملتُ الأمر، فوجدته صعب المرام، فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما، فإن أحبّ غير السلطان، فله عندي أن يواسيه يوسف، ويزوجه، ويجيبوه، انطلقا راشدين»[١].

وبذلك انقطع أملهم من ربيعة ومضر، واتجهوا نحو اليمنيين، وأخذوا يدعون كل يمني يُقابلونه، وكان اليمنيون قد وغرت صدورهم؛ طلبًا للثأر، وبينما هو ينظر في الهزيمة التي لحقت بجيشه في «جليقية» جاءه رسول من قِبَلِ ولده، يُخبره أن فتىً من قريش من ولد هشام بن عبد الملك، نزل بساحل المنكّب، فاجتمع إليه موالي القوم والأُموية[٢].

انتشر الخبر في المعسكر، فانفضّ الناس عن يوسف الفهري، وتنادوا في نفوسهم، وأصبح يوسف بن عبد الرحمن ليس في عسكره وجنده غير القيسيين من أهل الشام، فقال للصّميل: ما الرأي؟. فقال الصّميل: بادره الساعة، قبل أن يستفحل أمره»[٣]، وانصرفوا إلى قرطبة.

العبور إلى الأندلس:

في (غُرّة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م)، نزل عبد الرحمن بن معاوية بساحل البيرة في ثغر المنكب، والمنكب هذه مدينة كبيرة بيضاء، تقع على خليجين متجاورين كقوسين في البحر، وتحميها الجبال من الخلف، وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر، هو الذي حدا بعبد الرحمن الداخل إلى اختيارها للنزول في شاطئ الأندلس، فضلاً عن قربها لمركز دعوته[٤].

---

(١) المصدر السابق (ص٤٤).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٤).

(٤) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان. العصر الأول - القسم الأول (ص١٥٢) الهامش. ط الخانجي.

ثم ارتحل عبد الرحمن إلى طرش وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر، استقبله أبو عثمان فيها وأنزله بمقامه، فأقبل إليه جماعة من الأمويين، وقد أُعدّ لعبد الرحمن بن معاوية ما يصلح لمثله من المركب والمنزل والملبس[١].

وتوافد عليه الناس من كل مكان، وعلم يوسف الفهري بذلك، فكتب إلي جماعة الأمويين محذراً مُخوفاً!!.

فقالوا له: إنما أقبل ابن معاوية إلينا وإلى جماعة مواليه، يُريد المال، ليس فيما يظن الأمير – أصلحه الله – ولا فيما يُرفع إليه[٢].

في هذه الأثناء استقرّ عبد الرحمن الداخل بطرش يُنظّم دعوته ويُدبر خططه[٣]. وكان يوسف بن عبد الرحمن أثناء ذلك في الشمال يُعسكر بجيشه تحت أسوار سرقُسطة، وقد استعصم بها عامر البدري والحباب الزهري، فلما تمّ له الأمر بالاستيلاء على سرقُسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف، الذي استخلفه على قرطبة، ومعه كتاب يُنبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموي، وانتشار دعوته في جنوب الأندلس.

أصاب الذعر يوسف بن عبد الرحمن من جرّاء هذه الأخبار، وذاعَ النبأُ في الجيش، فسرى إليه الخلل، وتسللت العناصر الناقمة، ولم يبقَ منه سوى فلول يسيرة؛ فهرول يوسف في بقية جنده إلى طليطلة، يبحث مع الصّمَيل في أفضل الوسائل لرد هذا الخطر القادم.

ولما وصل إلى طليطلة دعا وزيره الصّميل، وأخبره الخبر، فقال له الصميل: «الرأي أن تمكر بابن معاوية، فهو فتى حديث السن، وقال له: هو قريب عهد

---

(١) «البيان المغرب» (٢/ ٤٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٥).

بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعوه إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه، وفي الذين سعوا له بما تحب»[١].

ونصح الصميل يوسف بأن يزوّجه ابنته، وأن يجعله يُقيم في جند دمشق أو الأردن، وأن يوليه على الكورتين، وكانت الرسالة التي وصلت إلى يوسف بن عبد الرحمن من أم عثمان أم ولده تقول فيها:

«ابن معاوية قد دخل، ونزل طُرّش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان، وأصفقت معه بنو أمية، وإن خليفتك على البيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليُخرجه، فهُزِمَ وضرب أصحابه، ولم يقع قتل، فالرأي رأيك»[٢].

وبعد أن سمع يوسف نصيحة الصميل أراد أن يُنفذها، فكتب إلى عبد الرحمن الداخل كتابًا جاء فيه:

«أما بعد، فقد انتهى إليَّ نزولك بساحل المنكّب، وتأبش من تأبش إليك، ونزع نحوك السُّرّاق وأهل الخزي والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه - جلّ وعلا - نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفًا، وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط.

فإن كنت تُريد المال، وسِعَة الجناب، فأنا أولى لك ممّن لجأت إليه، أكْنُفُك وأصل رحمكَ، وأنزلك معي إن أردت، وبحيث تُريد، ثم لك عهد الله وذمته في ألاّ أغدر بك، ولا أُمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره»[٣].

وأمر يوسف بتأليف وفد يتكون من خالد بن يزيد كاتب يوسف، وعبيد الله ابن عليّ، وعيسى بن عبد الرحمن الأُموي، وبعث معهم بكسوة وفرسين ونعلين

---

(١) «البيان المغرب» (٢/ ٤٥).

(٢) «تاريخ الإسلام وآثارهم في الأندلس» د/ عبد العزيز سالم (ص١٤٨).

(٣) «البيان المغرب» (٢/ ٤٥).

ووصيفين وألف دينار، وسار القوم حتى بلغوا أرش في أدنى كورة رية، وهناك اتفق الثلاثة على أن يبقى عيسى بن عبد الرحمن بالأموال والهدايا، فإذا وجدا عبد الرحمن بن معاوية متجاوبًا وراغبًا في الصلح أرسلا إلى عيسى رسولاً؛ لتقديم الهدايا، وإذا لم يجد شيئًا من القبول لدى ابن معاوية، فإن يوسف الفهري أحق بماله(١).

حضر الوفد إلى «طُرُش» حيث يسكن عبد الرحمن، وسلم خالد الكتاب إلى عبد الرحمن بن معاوية، فأخذه منه وسلّمه إلى أبي عثمان، وقال له: «اقرأه، وأجب فيه بما تعلم من رأينا» وأعجب بعض الحاضرين برأي يوسف وأثنوا عليه، وعارضه بعضهم، وقالوا: لا نقبل ذلك منه إلاّ أن يعتزل الملك ويُبايعك، وإلاّ حاكمه إلى الله، وقالوا: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشيء؛ لأن وزيره ومالك أمره الصّميل، وهو غير مأمون»(٢).

أخذ أبو عثمان الكتاب واستعدّ للرد، فقال له خالد بن يزيد: يا أبا عثمان، لتعرفَنَّ إبطاك قبل أن تخير فيه جوابًا. فغضب أبو عثمان، وضرب بالكتاب وجه خالد، وشتمه، ثم أمر به فأُخذ وكُبِّل بالأغلال، ورجع عبيد وعيسى بما معه من هدايا، وكان ما فعله أبو عثمان بمثابة إعلان حرب على يوسف بن حبيب والصّميل.

وكانت الدعوة الأموية في ذلك الحين قد اجتاحت جنوبي الأندلس والتفّ حول عبد الرحمن عدّة من زعماء القبائل والجند، منهم تمّام بن علقمة اللخمي، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين، ويوسف بن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن، وجدار بن عمرو المذحجي من زعماء ريُّه، وحسان بن مالك الكلبي من زعماء إشبيلية.

---

(١) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص١٨٥).

(٢) «البيان المغرب» (٢/ ٤٦).

ولم يكن طموح عبد الرحمن الداخل محدداً في تولي ولاية أو ولايتين، ولكن هذا الطموح كان أبعد من ذلك وأرفع، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله[١]. وكان قد آنس ذيوع دعوته وقوة أنصاره، فسار في صحبه من طرّش إلى ريُّه، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونه فبايعه عاملها علقمة بن عياش اللخمي، ثم إلى أشبيلية، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم اليمنية، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند، واجتمع له في أشبيلية زُهاء ثلاثة آلاف فارس، وذاعت دعوته في غربي الأندلس كله، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب، من المضرية واليمنية، وأهل الشام، ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته صوب قرطبة.

(١) المصدر السابق.

يوم المسارة

كان يوم المسارة حاسمًا في مصاير الأندلس، وكان فاتحة عهد جديد في تاريخها، وكان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته.

ففي مطلع (ذي الحجة سنة ١٣٨هـ - أوائل سنة ٧٥٦م)، سار عبد الرحمن الداخل في قواته صوب قرطبة.

وفي ذلك يقول تمّام بن علقمة: «واجتمعنا إليه فأتيناه في ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين، وممن أقبل إليه من وجوه العرب، ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين، فلما جاءت رسلهم بما أردنا نهضنا إليهم، وكنّا قد وُطِّنّا على الموت، وعزمنا على أن نُقتَل دونه، وعقدنا له لواء، وأقمنا معه ستة أشهر نُبرم له أموره ونُكاتب له الناس»[١].

ورحل عبد الرحمن بن معاوية من البيرة إلى كورة ريّه، إلى شذونة إلى موردر، إلى كورة أشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحاب، ويُضيف تمام بن علقمة قائلاً: «فدخلنا رَيَّة في ستمائة فارس، وخرجنا منها في ألفي فارس، وخرجنا من إشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة آلاف فارس»[٢].

ودخل عبد الرحمن الداخل أرشدونه، يوم عيد الفطر، وأقبل الخطيب، قام إليه جدار بن عمر القيسي، فقال له: «اخلع يوسف بن عبد الرحمن، واخطب لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فهو أميرنا وابن أميرنا، ثم قال: يا أهل ريَّة، ما تقولون؟ فقالوا: نقول ما تقول.

فخُطِبَ لعبد الرحمن الداخل، وبايعوه عند انقضاء الصلاة»[٣].

---

(١) «البيان المغرب» (٢/٤٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» د/ عبد العزيز سالم (ص١٨٧).

وقيل لعبد الرحمن بن معاوية: إن قرطبة تعج بموالي الأمويين، فشجعه ذلك على السير إليها، وعمد إلى حيلة تنم عن دهاء، فأوقد ناراً في معسكره، ليُوهم يوسف بن حبيب أنه باقٍ في المعسكر، وارتحل مسرعًا إلى قرطبة لعله يصلها قبل يوسف، فلم يسر إلى قليلاً حتى أتى يوسف من يُخبره بما أراد عبد الرحمن من مخالفته ليدخل قرطبة، فأصبحا يتسابقان والنهر بينهما.

فعدل عبد الرحمن عن خطته، وعدل يوسف كذلك، وسارا والنهر بينهما، وكان جند عبد الرحمن قد تعبوا ونفدت مؤونتهم، بينما جند يوسف يتمتعون بأشهى أنواع الأقوات، ثم نقص النهر يوم الخميس التاسع من ذي الحجة – يوم عرفة – فقال عبد الرحمن: في أي يوم نحن؟

فقيل له: يوم عرفة، وغدًا الأضحى والجمعة وأمري مع فهري (يقصد يوسف الفهري)، أرجو أنها أخت يوم مرج راهط[١].

وصمم عبد الرحمن على القتال في اليوم التالي – يوم الجمعة – وكان يوم الأضحى؛ متيمنًا في ذلك بذكرى موقعة «مرج راهط» الشهيرة، التي انتصر فيها جدّه مروان بن الحكم، على قوات عبد الله بن الزبير[٢]، التي يقودها الضحاك بن قيس الفهري، وذلك في يوم الأضحى، وقد كان الجمعة أيضًا سنة (٦٤هـ).

وفي اليوم التالي دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر، وكان أول من اقتحمه منهم جند بني أمية، وكان يوسف يتفوق على عبد الرحمن بكثرة فرسانه، ولكن التفرق كان يسود جنده، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم رغم قلتها عزمًا وحماسًا، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ولكن قصيرة.

يقول ابن عذارى: «فلما أصبح يوم الجمعة، التقى الجمعان، واستمرت الحرب والقتال، فمشى العلاء بن جابر العقيلي إلى الصميل فقال له: يا أبا جَوْش،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر كتابنا «الخلافة الأموية» ط دار ابن حزم – بيروت.

اتقِ الله، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلاّ بيوم المرج، وإن عاره لسبّاق علينا إلى اليوم، فإن الأمور يهتدي لها بالأقران والأمثال: أمويٌّ وفهريٌّ، وقيس واليمن، وهذا يوم عيد، ويوم جمعة، ويوم المرج أيضًا يوم جمعة، والأمر والله علينا، لا شكّ في ذلك؛ فاتقِ الله، واغتنم لنا الأمر، لنكون فيه أعزاءً لا أتباعًا»(١).

ولم يأتِ الضُّحى حتى مُزِّقت خيل يوسف، وهُزم جيشه هزيمة شديدة، ونُهبت أسلابه، وقُتل كثير من وجوه القيسية والفهرية - وأراد يوسف الفهري - أن يدخل القصر، فاعترض له عبد الأعلى بن عوسجة، فلم يستطع دخوله، فولى منهزمًا إلى جبل قرطبة صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفرَّ الصّميل صوب جيان، ودخل عبد الرحمن الأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع من الاعتدال والقناعة والسماحة، وحَمَى أُسَر خصومه وحريمهم وأموالهم من العبث، ثم نزل بالقصر، وبُويع في الحال بالإمارة، وذلك في (العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ - ١٣ مايو سنة ٨٥٦م)(٢).

وكان يوم المسارة بالنسبة لعبد الرحمن الداخل فاتحة النصر والظفر لا غايته ونهايته، فقد استطاع بعد مشقة ومصاعب جمّة وخطوب شديدة أن يجوز إلى الأندلس، وأن يفتتح عاصمتها، وأن ينتزع إمارتها بنفسه، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد، وكانت المسافة بينه وبين ملك الأندلس المستقرة مراحل بعيدة.

وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأُموية، كما رَأَيْنا، نَهْبًا مشاعًا يتنازعه الزعماء، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا، واقتصت من أطرافها، واستقلّ الزعماء بكثير من النواحي، فأصبحت هذه النواحي ولايات منفصلة هنا وهناك، وقضى يوسف الفهري ولايته في إخماد

---

(١) «البيان المغرب» (٢/٤٦).

(٢) انظر «نفح الطيب» (ج٢، ص٦٥، ص٦٦)، و«البيان المغرب» (٢/٤٨، ٤٩).

الفتنة، واستخلاص الرياسة، ولكن لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج، فلما ظهر الفتى الأموي عبد الرحمن الداخل من الميدان، وكان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوي.

وإذا كان يوم المسارة يومًا حاسمًا في تاريخ الأندلس، وفاتحة عهد جديد في تاريخها، إلاّ أن المهمة كانت صعبة وشاقة ومتشعبة النواحي، وقد كان يوم المسارة فاتحة الظفر، وفاتحة الكفاح أيضًا؛ ذلك أن الأندلس كانت مسرحًا للفتن والثورات في كل مكان، وانتشرت فرقًا وشيعًا صغيرة فلم تبقَ الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة، وكانت هذه القوى المنتشرة المستقلة برأيها وهواها، تتمسك باستقلالها المحلي، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة، وكان عبد الرحمن الداخل يسعى إلى إحياء دولة مسلمة في الأندلس متماسكة قوية موحّدة، كما كانت قبل أن تعصف بها وتُمزقها الحرب الأهلية، فكانت المعركة في الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة[١].

وكان البربر عنصرًا قويًا وفعّالاً في الفتنة، يحتفظون دائمًا ببغضهم القديم للعرب، ويتمسكون بحرص شديد على ما انتزعوه من العرب خلال الفتنة من النواحي والضياع والمدن.

وقد كان هناك الكثير ممن هم أشد خطرًا على الدولة الإسلامية في الأندلس، وهم أسبانيا النصرانية، أو نصارى أسبانيا الذين اغتنموا الفرص؛ ليخرجوا من محنة الهزيمة والفوضى بصفوف منتظمة ومملكة جديدة في الشمال، وكان هناك أيضًا مملكة الفرنج القوية التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنية، وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس، ويرون

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ محمد عبد الله عنان (ق١ - ج١، ص١٥٥).

في تفرقها وضعفها فرصةً صالحة للعمل، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج، ويمدونهم بالنصح والمعونة، ويتخذونهم وسائل؛ لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها.

ونظرة فاحصة على هذه الأمواج المضطربة تشعر بالإشفاق على عبد الرحمن الداخل، فقد كان غداة نصره المظفر في المسارة، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها، وكان عليه أن يُصارعها جميعًا؛ لكي يحقق حلمه الأكبر، وهو الجلوس على سرة الحكم لدولة الأندلس الإسلامية الأموية القوية المتحدة، ولكن ذلك الفتى الأموي الجريء لم يكن يُجاوز السادسة والعشرين من عمره يوم ظفره ونصره الأول في المسارة، كان رجل الموقف، الذي صنعته الخطوب والمحن حينما رأى دولة أجداده وآبائه تنهار في المشرق، وسيف العباسيين يعصف بعنق أخيه الغلام الصغير على شاطئ النهر، فيفر بطموحه الكبير إلى فخر أجداده وزهرة فتوحاتهم وهي الأندلس، كانت الخطوب والمحن التي واجهها هي التي صنعت منه صقرًا يشهد له في زمانه خصومه، بل أشدهم وهو أبو جعفر المنصور فيحمد الله أن جعل بينه وبينه بحرًا، بل بحار بعيدة.

قضى عبد الرحمن الداخل ضيعة المحن والخطوب بقية عمره (اثنين وثلاثين عامًا) في كفاح مستمر، ونضال لا يهدأ، ومغامرة مدهشة، لا ينتهي من معركة إلا ليخوض أخرى، ولا يقمع ثورة إلا تليها ثورة، ولا يسحق خارجًا عليه إلا ويعقبه خارجٌ آخر، ولم تبقَ في الأندلس ناحية أو مدينة إلا وثارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة، فقد حاولت كل القوى الخفية والظاهرة سحقه والقضاء عليه. كانت الأندلس طيلة سنوات حكمه بركانًا مشتعلاً ثائرًا، يرمي الحروب والثورات والمؤامرات والفتن، ولكنه صمد صمود الأبطال أمام تلك الخطوب والمحن.

وقد استطاع بوافر ذكائه وعظيم إقدامه، وقوة عزيمته وجَلَده، أن يُصارع تلك

الأخطار والقوى ويُغالبها، وأن يُمسك ويقبض على مُقدّرات الأندلس ومصائرها بيدٍ من حديد، وأن يُعيد مجد بني أُمية المندثر، في هذه البلاد الجميلة الرائعة، وإن كانت بعيدة عن أصوله في المشرق الإسلامي؛ لتستقر الأندلس قرابة قرنين من الزمان[١].

ولقد كان لتفرق خصومه أكبر الأثر في تحقيق النصر، فلم تكُ ثمّة زعامة شاملة بعد يوسف الفهري والصميل، يجتمع الخصوم حولها، وكان خصومه متناثرين في النواحي والمدن، كل منهما يعمل بمفرده حول زعيم أو قائد محلي وكان فوق ذلك يُعارض بعضها البعض، وقد استغل عبد الرحمن هذه الحالة استغلالاً كبيراً لصالحه، فعمد إلى لقاء معارضيه في ميادين القتال فرادى، وبذلك استطاع أن يقضي عليهم ويُخمد ثوراتهم، وأن يُحطم قواهم واحداً تلو الآخر، ومع تحطيم كل قوة كان يزداد قوةً ومهابةً ومنعةً وأتباعًا، في حين يتراجع خصومه وتضعف شوكتهم ومقاومتهم، حتى استطاع أن يقضي عليهم جميعًا - كما سنرى - .

(١) المصدر السابق.